

تاريخ الاستلام: 2018/02/05 تاريخ القبول: 2018/10/21



د. صبرينة حديدان
(جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل)
Email : hadidenesabrina@gmail.com

الملخص

إن المتمعن في مفهوم المواطنة يجد أنه لا يمكن فصل دلالاته ومعانيه عن مفهوم الحضارة، ويجد أن كل معالجة المواطنة تكون قاصرة إذا اختزلناها في البعد السياسي والقانوني، بل لا بد من ردها إلى سياق أكثر شمولية وهو ربطها بحضارة الإنسان وهويته. وحينما نتحدث عن الحضارة، فمن غير المعقول أن نتجاوز ما قدمه مالك بن نبي من قراءات لفهم الحضارة: مشكلات، نقاد، وبدائل للإقلاص الحضاري. والجدير بالذكر أن مالك بن نبي قد تكلم عن المواطنة كأمر منشود، لا كواقع معاش. وفي هذه الدراسة النظرية، سيتم بيان تجليات مفهوم المواطنة في الأطروحات الفكرية لمالك بن نبي بالاعتماد على المنهج التحليلي وتعد هذه الدراسة محاولة لتأصيل مفهوم المواطنة الذي جاءنا متشعبا بقيم الثقافة الغربية، وإعطائه الطابع الخاص بثقافة المجتمعات الإسلامية والعربية، وهنا مكن الأصالة في الموضوع. والهدف هو الإشارة إلى المغالطة الإبستمولوجية التي يقع فيها الكثير من الباحثين وهي اقتطاع المفاهيم الناشئة في البيئات الغربية وافتراس قدرتها على معالجة القضايا الموجودة في البيئة العربية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: المواطنة، مالك بن نبي، الحضارة، مقومات المواطنة، أبعاد المواطنة.

Abstract

The concept of citizenship differs from the concept of civilization but it is inseparable from it, Citizenship cannot be understood only politically and legally, a comprehensive concept should be linked to human civilization and his identity.

Although Malik IbinNabi did not directly care about citizenship; However, we can highlight his interest in both citizenship and civilization by presenting a civilized project, Considering citizenship as a hope, not a fact. This paper is an attempt to read the concept of citizenship came from westernand make it in accordance with the characteristics of Arab Muslim societies, in order to refer to the epistemological fallacy that always leads us to borrow Western concepts and to bring them down to our reality.

Keywords: Citizenship, Malik IbinNabi, Citizenship Elements, Citizenship Dimensions.

مقدمة:

يعد مالك بن نبي علما من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وهو الذي طرح وحلل المشروع الحضاري، ووضع أساسه المنهجي، متجاوزا في ذلك الكثير من المقاربات في عصره.

ولقد بدأ بن نبي تحليله للعالم الإسلامي في إطار العولمة التي تقتضي أن المجتمعات ليست معزولة، فالعالم الإسلامي موجود في قلب الأحداث العالمية شاهدا وفاعلا، وبالتالي، فهو يؤثر في هذه الأحداث ويتأثر بها، مما قد يفقده خصوصيته، وأن يصوغ لنفسه المفاهيم التي تتلاءم وبيئته الاجتماعية، وأن يتوقف عن استيراد المفاهيم الغربية التي لا تستطيع معالجة الواقع الإسلامي.

والمواطنة واحد من المفاهيم التي عنى مالك بن نبي بتناولها أملا في الوصول لتحقيقها في مجتمعاتنا، خاصة وأن الشروط والمقومات الأساسية لها لم تتحقق بعد في هذه المجتمعات.

مشكلة الدراسة: غني عن البيان والتأكيد، أن المواطنة لا يمكن أن تتحقق إلا إذا توفرت مقوماتها وشروطها في المجتمع، بمعنى؛ إذا توفرت تلك الظروف التي تكون لدى الفرد إحساسا بالانتماء للوطن واندماجا في مشاريعه، ومساهمة في بنائه وتقديمه دونما إكراه أو إجبار. إنها المواطنة الحق التي بحث عنها مالك بن نبي في كتاباته، تنويرها بأن هذا المفهوم المستورد من الغرب كقالب جاهز، لا يمكن له أن يتحقق في مجتمعاتنا ما لم تتوفر له الشروط التي تصوغه كمعادلة اجتماعية. ذلك أن المفاهيم هي نتاج سيورة تاريخية وثقافية، وقبل أن يكون ونتاجا لعملية عقلية وفكرية، فقد تجسد في المجتمع الذي أنتجه كواقعة سوسيولوجية، طارحا بذلك جملة من التساؤلات التي استفزت الباحثين في حقله للإجابة عنها، مما ينتج عنه المفاهيم. لذلك يأتي المفهوم

متشعبا بخصوصيات الواقع الذي أنتج فيها. فاستقطاع مفهوم المواطنة في صورته الجاهزة وإسقاطه إسقاطا آليا على واقع مجتمعاتنا لا يجعل منه مفهوما مساعدا على فهم وقراءة هذه المجتمعات، بل بالعكس، قد يساهم هذا في حجب حقيقة ما يدور في هذه المجتمعات.

فما هي المواطنة كما أنتجها الفكر الغربي؟ وكيف تناول المفكر مالك بن

نبي هذا المفهوم؟

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة الحالية للوقوف عند مفهوم المواطنة في الكتابات العربية وحتى الغربية، وكيف تجلّى هذا المفهوم كأمل منشود عند باحث الحضارة مالك بن نبي. لذلك، لابد من كشف جوانب القصور التي تعانيها المجتمعات للوصول إلى ترسيخ قيم المواطنة لدى أفرادها.

كما تهدف الدراسة إلى إبراز الكيفية التي عرض بها مالك بن نبي مفهومه للمواطنة، وقيمها بدء بتجليها لدى الإنسان، صعودا إلى الدولة.

أهمية الدراسة: تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها محاولة لتسليط الضوء على مفهوم المواطنة بطرح عربي إسلامي، تتجلى فيه أبعاد المواطنة وقيمها المجتمعية. ناهيك عن أن مالك بن نبي كان يعالج الموضوعات بربطها بالحضارة ومشكلات الحضارة، محاولا بذلك رسم طريق عالمي للحضارة، فهو لم يكن يكتب للمسلمين والجزائريين فقط، بل كان يكتب للإنسانية.

الدراسات السابقة:

دراسة عبد الله بن سعيد آل عبود (2009)، بعنوان: **قيم المواطنة لدى الشباب وإسهامها في تعزيز الأمن الوقائي**. أجريت الدراسة بالجامعات الحكومية

بالمملكة العربية السعودية. انطلقت الدراسة من التساؤل التالي: إلى أي مدى تسهم المواطنة لدى الشباب الجامعي في تعزيز الأمن الوقائي؟

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الوثائقي، مطبقا الإستبانة كأداة لجمع البيانات على 384 طالبا جامعيًا تتراوح أعمارهم بين 18 و33 سنة. وقد توصلت الدراسة إلى أن قيمتي النظام والمشاركة قد حققنا نسبا عالية في الجانب الروحي والعاطفي، وكانت نسبتهما من منخفضة إلى متوسطة في الجانب السلوكي.

كما تعمل قيمتا النظام والمشاركة كقيمتي مهمتين وأساسيتين في تعزيز الأمن الوقائي. وتوصلت الدراسة كذلك إلى أن معوقات تفعيل قيم المواطنة لدى الشباب الجامعي هي: البطالة والفساد والوساطة... وهو ما يحد من ممارسة المواطنة.

دراسة محمد باشوش (2005)، المعنونة ب: المواطنة في عيون الشباب التلميذي. وهي دراسة ميدانية بمؤسسات التعليم الأساسي والثانوي بتونس. انطلقت الدراسة من التساؤل الرئيسي التالي:

أي مواطنة تحاول المؤسسات التربوية صياغتها وترسيخها لدى الناشئة والشباب المرتاد للثانويات بتونس؟

هدف الدراسة للكشف عن ملامح المواطنة لدى التلاميذ وأثرها على المشكلات الاجتماعية في حياتهم اليومية. وللوصول إلى تحقيق هذا الهدف، اختار الباحث عنة عشوائية مكونة من 201 تلميذا في التعليم الثانوي والتعليم الأساسي، مطبقا المنهج الوصفي التحليلي، ليصل إلى النتائج التالية:

- يرسخ الوعي بالتاريخ الوطني الهوية الثقافية وكسب النشء مرجعة فكرة وتوجهات حضارية نحو السعي للحفاظ على أمن واستقرار المجتمع.

- يرتبط الرأسمال الثقافي في الوسط الاجتماعي بشكل كبير باكتساب التلاميذ مهارة التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم الشخصية بكل حرية.
- الوعي بالدلالات الاجتماعية لمفهوم المواطنة يخلق استعدادا لدى التلاميذ للمشاركة الفاعلة في الحياة العامة.
 - الوعي بمتطلبات المواطنة يخلق لدى عامة المتعلمين استعدادا للمشاركة في الحياة العامة والإنخراط في المسائل التعاونية.
 - لا تشكل المشاركة في تنظيمات المجتمع المدني نقطة جذب لدى الشباب، نظرا للصورة المشبوهة التي يتداولها الخطاب العام حول أهداف ورموز هذه التنظيمات وطرق عملها.
 - المواطنة التي تسعى المؤسسات التربوية
 - أن المواطنة التي تسعى المؤسسات التربوية إلى تحقيقها فيهما الكثير من التجريد والمعرفة النظرية أكثر من الممارسة الفعلية .
- مفهوم المواطنة:** تعرف المواطنة لغة على أنها: " مشتقة من كلمة الوطن، وهو المنزل الذي يقيم فيه الإنسان. ويقال وطن بالمكان وأوطن أي أقام... وأوطن فلان أرض كذا أي اتخذها محلا ومسكنا يقيم فيه." (ابن منظور، 1993: 332)
- " ويعود أصل الكلمة الإنجليزية Citizen أو الفرنسية Citoyen إلى كلمة Civis الإغريقية القديمة، والتي تعني الشخص القاطن في المدينة Civitas. وتقترب كلمة Civis بمعنى مواطن من كلمة Civil (بالفرنسية أو الإنجليزية) والتي تعني مدني.

وترتبط كلمة (مدني) بدورها بمجتمع مستمر ينظم العلاقة بن أفرادهم، وبينهم وبين الدولة حسب القانون. أما في اللغة العربية فكلمة مواطن مشتقة من الوطن. " (بندحمان، د.ت: 06)

يبدو جليا من خلال التعاريف اللغوية السابقة أن لا يمكن فصل المواطنة عن الحضارة. وسيوضح هذا أكثر من خلال تحديد معنى المواطنة اصطلاحا، إذ تعرف على أنها: " اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة أو وطن " (عبد الحفيظ، 2007: 10) وهنا إشارة إلى الرابطة الوجدانية والشعور الذي يجعل الفرد مرتبط بجهة محددة، سواء كانت وطنه أو أمته.

إن الشعور أو الرابطة الوجدانية المتجسدة في الانتماء لا بد من أن يرافقه واجبات وحقوق، وهنا تعرف المواطنة على أنها: " التزامات متبادلة بين الأشخاص والدولة، فالشخص يحصل على حقوقه المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة انتمائه لمجتمع معين. وعليه في الوقت ذاته واجبات يتحتم عليه أدائها. " (مان، 1984: 110)

بمعنى أن المواطنة هي علاقة الشخص بدولته، وما ينجرّ عن تلك العلاقة من حقوق والتزامات. لذلك فقد عرفت الموسوعة البريطانية المواطنة على أنها: " علاقة فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة. فالمواطنة تتضمن مستوى من الحرية تصاحبها مسؤولية مناسبة. " (بندحمان، د.ت: 07)

بناء على ما سبق، يمكن القول أم مفهوم المواطنة لا يمكن أن يتحقق إلا بتوافر الشروط التالية معا:

- علاقة بين الشخص والدولة في ظل قانون تلك الدولة.
- حقوق وواجبات.
- رابطة وجدانية تتمثل في الشعور بالانتماء للوطن والدفاع عن قضاياها والمساهمة في نموه.

قيم وأبعاد المواطنة: تعتمد المواطنة في وجودها واستمرارها على جملة من المقومات التي إذا غابت فقدت المواطنة. ويمكن اختصار هذه المقومات في:

- المساواة وتكافؤ الفرص: حقا وواجبا. وإتاحة الفرص لكل الأشخاص بالتساوي؛ حيث أن الفرد إذا أحس بهذه المساواة، ولامس العدالة في الفرص، نما لديه شعور بالانتماء للوطن. أما إذا ظلم وانغلقت الأبواب في وجهه، صار متمردا، مغتربا عن قيم المواطنة. (غليون، 2006: 14)

- الولاء للوطن: وهو رابطة وجدانية تجمع المواطن بوطنه، تتجلى في سلوك المواطن النابع من اعتقاده بأن هناك التزامات وواجبات نحو الوطن لا تتحقق المواطنة دون التقيد الطوعي بها. (توميد، 2012: 54) فالولاء للوطن يعني أن يشعر كل مواطن أنه معني بخدمة ذلك الوطن وحماية مقوماته، والمساهمة في إقلاعه نحو التقدم، والدفاع عن قضاياها السياسية والاقتصادية والاجتماعية

- كما تقتضي المواطنة ضرورة وجود المشاركة في الحياة اليومية، " ولا بد أن تكون هذه المشاركة فعلية، وغالبا ما يشار لها بتطبيق مفهوم الديمقراطية. وتعني هذه المشاركة أن لكل مواطن الحق في أن يكون جزءاً من مجال معين (الإقتصادي، السياسي، الثقافي...) دون تمييز بن المواطنين. والأساس في هذه المشاركة أن ينال

المواطن حقه في المشاركة في تدبر الشأن العام للوطن بشكل مباشر (تولي منصب) أو غير مباشر (إبداء الرأي، الانتخاب....) " (توميد، 2012: 37)

والحقيقة، أنه وكما يرى سيدي محمود ولد يب " لا وجود لمواطنة دون غايات وقيم محددة، أي أنها ليست فحسب مجموعة من الحقوق والواجبات، فهذه لا تمنح كامتيازات للمواطنين إلا من حيث كونهم يشعرون بانتمائهم إلى جماعة تحكمها قيم يتقاسمها الجميع، حتى وإن كانت موضوع حوارات متناقضة أحيانا. " (ولد يب، 2011: 55) وهذه القيم هي:

- المدنية: والتي تعني احترام المواطن لبقية المواطنين، ومراعاة أخلاق المصلحة العامة.

- حسن المواطنة: وهو شعور يتضمن الإخلاص للوطن واحترام القواعد والقوانين المعمول بها، والوعي بالواجبات تجاه المجتمع.

- التضامن: مع الآخرين ومع قضايا الدولة. وهنا تلعب السياسة العامة دورا هاما في بث واستمرار روح التضامن والتعاون بين أفراد المجتمع. (ولد يب، 2011)

بناء على ما سبق، نجد أنفسنا أمام مفهوم معقد يقتضي منا فهمة بطريقة عملية تفكيكه إلى جملة الأبعاد المكونة له، وهذه الأبعاد هي:

- البعد السياسي: ويتجلى في إحساس الفرد بانتمائه إلى الوطن كجسم سياسي، يتمثل في مؤسسات الدولة والأحزاب والنقابات والجمعيات، وأفكار تدور حول الشأن العام، ومدى سعي الفرد للتأثير فيه عن طريق الولاء أو المعارضة. (المودن، 2007: 02)

- البعد الثقافي: ويتجلى في إحساس الانتماء إلى جماعة تمثل الهوية. وتتجسد هذه الهوية المشتركة فيما يجمع الفرد مع غيره من ممارسات الحياة اليومية. " فالمواطنة

دعامة للهوية وامتداد لها" (ولد يب، 2011: 67) وترتبط هوية كل مواطنة بمكونات الثقافة الاجتماعية السائدة في بلد ما، بما تحويه من معتقدات دينية وقيم ورموز وعادات وتقاليد ... إذ تؤثر كلها على تمثل المواطنة لدى المواطنين، ودرجة وعيهم بواجباتهم وحقوقهم وكل ما يربطهم بالدولة. لذلك يمكننا أن نرى المواطنة على أنها نتاج مكتسب لتمسك المواطنين بثوابت الهوية، فهي مكتسب يتحدد وفق ما توفر له من شروط وثوابت الهوية.

موقع قيم وأبعاد المواطنة في فكر مالك بن نبي: لم يطرح مالك بن نبي المواطنة في أفكاره وتحليلاته بشكل محدد، ولكن أبعادها وقيمها جاءت في سياق تحليله للحضارة، وحديثه عن ضرورة الانتماء، وعن شبكة العلاقات الاجتماعية، وعن علاقة الفرد بالدولة، ومعادلة الحق والواجب... لذلك، فالحديث عن المواطنة سيكون ضمن الإطار العام لأفكار مالك بن نبي.

وعلى اعتبار أن النسق الفكري لمالك بن نبي ينطلق من الإنسان إلى المجتمع فإن مفهوم المواطنة سيعالج انطلاقاً من طبيعة الإنسان وصولاً إلى علاقته بالدولة.

يبرز مالك بن نبي في تحليلاته أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ويسعى دائماً عبر أعماله لتحقيق فطرية الاجتماع الغريزية فيه. ونتيجة لهذه الميزة الاجتماعية التي ترضي وتلبي احتياجاته الفطرية، فهو بحاجة ماسة إلى تحقيق آليات الانصهار الاجتماعي مع بني جنسه، الأمر الذي يدفعه إلى البحث عن وسائل للتفاهم والتواصل اللغوي والفكري والاجتماعي والثقافي... وبهاته الآليات تتشكل نواة المجتمع. (www.binnabi.net / 31/10/2016. 13 12h)

إن الإنسان في نظر مالك بن نبي، لا بد أن يكون ذا تركيبة خاصة، تركيبة تشكلت من تفاعل غريزته وصقلها عن طريق تجارب تاريخية عاشها الفرد في أسرته

ومجتمعه وثقافته فهو " جهاز تخضع حركاته وسكناته إلى قانون صاغه ماضي أسرته ومجتمعه وثقافته. ولا بد من النظر إلى ماضي الجهاز للتعرف على مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية والمشروعات المخططة القائمة عليها. " (بن نبي، 2009 أ: 182) فحينما يتعرض الفرد إلى تجارب الحياة، فهو يكتسب منها عادات وقيم، بل ويصبح طرفا في معادلة صاغها التاريخ، وهو ما يحدد موقفه من كل قضايا الحياة ومشكلاتها. فبالنسبة لابن نبي، فإن كل سلوك يسلكه الفرد في مجتمعه، ناجم عن شخصيته، خبراته وتجاربه السابقة، إلا أنه يخضع لقانون أعم وأشمل وهو الثقافة السائدة في محيط الفرد، " وهي مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كتراسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه. والثقافة على هذا الأساس، هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. " (بن نبي، 189: 2012) وعلى اعتبار أن الحضارة هي: إنسان + تراب + وقت، فإن هذه المعادلة لن تؤدي ثمارها حقا إلا إذا كان هناك تفاعل وانسجام بين مكوناتها، حيث أن " الحضارة كالحرية، لا يمكن الحصول عليها إلا بالإنسان المتعقل لفعله، المدرك لوقته، المتفاعل مع ترابه، المتناغم مع تراثه، المتعلق بالمعارف العالمية على السواء، دون أن يتحول إلى زبون يستهلك ولا ينتج. " (بوعرفة، د.ت: 11)

فمن المستحيل أن نأمل في حضارة من تشييد الإنسان المغترب عن ذاته ومجتمعه ووطنه ووقته. فالانتماء إلى مركبات الحضارة شرط ضروري لقدرة الإنسان على بنائها.

وحتى يتمكن الإنسان من أن يصوغ معادلة الحضارة ويحققها، فهو ملزم بالإرتباط ارتباطا وثيقا بمجتمعه، الذي يستمد منه شروط البقاء، ويستقي منه طاقته التي تقوده نحو البناء والتشييد. " فالفرد يحقق إرادة وقدرة ليستا نابتين منه، ولا

تستطيعان ذلك، وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه، وإذا ركن لقدرته وحدها يصبح مجرد قشة ضعيفة." (بن نبي، 2009 ب: 42)

إن هذا التأكيد على ارتباط الفرد بمجتمعه عند مالك بن نبي له مسوغاته؛ حيث يرى أن الفرد لا يمكنه أن يكتسب الصفات الشخصية التي تجعله ينتمي إلى المجتمع بروابط قيمية وأخلاقية، إلا من خلال احتكاكه للمجتمع، وتعرضه لعملية التغير الاجتماعي، " فالعمل الأول في طريق التغير الاجتماعي، هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع." (بن نبي، 2013 أ: 31)

فالتربية هي أهم وسيلة يمكنها أن تدعم عملية التغير الاجتماعي، وتهذيب صفات وطبائع الأفراد وتأهلهم لأن يكونوا أشخاصا، ، التي اعتبرها مالك بن نبي " وسيلة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ." (بن نبي، 2013 أ: 100)

فلم يعط مالك بن نبي أهمية لأي مجتمع، أو لأي تغيير اجتماعي بعيدا قدرة ذلك المجتمع على بناء شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفرادها، " إن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده." (بن نبي، 2013 أ: 28) إذ اعتبرها الوسيلة الفعالة التي تمكن المجتمع من تكوين الروابط والصلات التي تحتاجها عناصره لتحقيق التغير الاجتماعي.

إن تحقق تماسك وانسجام شبكة العلاقات الاجتماعية، يستوجب أن يكون كل فرد فيها مدركا لحدود حريته، " ذلك أن حرية الفرد يمكنها أن تكون كلية دون

أن تضر بمصلحة النوع الفردي، ولكن حرية الإنسان لا يمكنها أن تكون مطلقة، إلا مقابل فوضى غير متلازمة مع جميع ضروريات التنظيم الاجتماعي والنظام العام." (بن نبي، 2009 ج: 109)

فكل فكرة تفقد فاعليتها إذا انفصلت عن شبكة العلاقات الاجتماعية، يقول مالك بن نبي: " لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء، بعيدا عن هذه العلاقات الضرورية، وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالا ومؤثرا." (بن نبي، 2013 أ: 38) بل ويرى مالك بن نبي، أن صناعة التاريخ، تعتمد اعتمادا كليا على قوة شبكة العلاقات الاجتماعية، فإذا كان التاريخ نشاطا مشتركا بين أفراد المجتمع، فإن هذا يقتضي وجود تقسيم للأدوار المناطة بكل فرد منتم لذلك المجتمع، وهذا التقسيم لا يكون اعتباطيا، بل لابد من تكامل الأدوار وتناغمها بالمعنى الذي يوصل المجتمع إلى بلوغ أهدافه. وهو ما يفرض أن تكون شبكة العلاقات الاجتماعية قوية، متماسكة ومنسجمة.

إذا، فالواجب على كل فرد داخل شبكة العلاقات الاجتماعية أن ينتبه لواجباته وحقوقه. وهنا لابد من أن نتوقف عند معنى القانون الذي رسمه مالك بن نبي لهذه القضية: **لا يحق لشعب مطالبته بحقوقه، ما لم يقيم هو بواجباته.** ولقد ربط الكاتب مفهوم الواجب بالعقبة التي تفرض بذل مجهود كبير لتجاوزها، وهنا تبرز مهمة الثقافة التي تتيح للفرد اختيار جانب الواجبات، فالواجب من الفرد أن يغير مصيره، أن يعمل للبناء والتشييد، أن يكون عنصرا فعالا في معادلة الحضارة، وإن لم يفعل، فليس له الحق في المطالبة بتغيير ظروفه والأمل نحو مستقبل أفضل أو العيش في ظروف أحسن. فتأدية الواجب هي السبيل الوحيد لنيل الحق. " فبقدر ما نختار طريق

الواجبات أو طريق الحقوق نقرر في الحقيقة مصير المجتمعات ثقافيا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا. " (بن نبي، 2013 ب: 121)

كما يؤكد بن نبي على أن الحق والواجب يتحددان انطلاقا من القانون الذي تفرضه الدولة (السياسة)، ومن هنا فإن العلاقة بين الفرد ودولته لا بد أن تكون علاقة تفاهم وانسجام وتكامل، يصب كل منهم جهوده في خدمة أهداف الطرف الآخر. فالسياسة لا بد أن تكون مطبوعة في عمل كل فرد من المجتمع، وتسير وفق مصالح أفرادها، يقول بن نبي: " إن التعاون بين الفرد والدولة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، هو العامل الرئيسي في تكوين سياسة تؤثر حقيقة في واقع الوطن. " (بن نبي، 2006 أ: 82)

ولكي يتحقق للإنسان رابط عضوي مع ترابه، ويتحقق له انتماءه المرافق لمفهوم المواطنة بلغة العصر، يؤكد مالك بن نبي على مفهوم الثقافة باعتبارها ذلك المحيط الذي يتغذى منه الفرد فكريا وجماليا وخلقيا. إذ من الثقافة يستقي الفرد عاداته وتقاليدته وقيمه... ومنها يتخذ لنفسه أسلوبا خاصا للحياة، أسلوب يتفق مع البيئة التي يعيشها، ويجعله يرتبط بها، فالثقافة هي " الرابط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه. " (بن نبي، 2013 ج، 103)

لذلك، فشبكة العلاقات الاجتماعية تعتمد في بقائها واستمرارها وتماسكها على عنصر فعال وهو الأخلاق، إذ " كلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في المجتمع، حدث تمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح له أن يصنع تاريخه. " (بن نبي، 2013 أ: 53) فصناعة التاريخ لا تعتمد على حاجة المجتمع لذلك، بقدر ما تعتمد على المبادئ التي تستند لها ذلك المجتمع وهو سائر في طريق الخلق والإبداع.

إن القول بضرورة الأخلاق لتماسك شبكة العلاقات الاجتماعية، يجعل من الدين عاملاً حاسماً في الجمع والتوليف بين العوالم الثلاث المشكلة لهذه الشبكة: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، وعالم الأشياء. إذ يدخل الدين في تنظيم طاقة الأفراد، وتحويلها لنشاط فعال، يساهم في تشكيل النشاط المشترك للمجتمع خلال مسيرته في صناعة التاريخ. فالدين " يجعل من الوقت ... وقتاً اجتماعياً مقدراً بساعات عمل، ومن التراب ... مجالاً مجهزاً مكيفاً تكييفاً فنياً يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعاً لظروف عملية الإنتاج." (بن نبي، 2006 ب، 123)

فإكساب الفرد صفة الارتباط العضوي لا يمكن أن يكون إلا ضمن جهود تربوية، يتحقق من خلالها انتماء الفرد للجماعة واستلهامه لقيمها ومثلها. وهذه الجهود التربوية يمكنها أن تعمل على تحويل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي له أدوار يمارسها في المجتمع ووظائف يقوم بها، وهو ما يسمح للمجتمع أن يكمل مساره في صنع تاريخه. " إن إدماج الفرد في شبكة العلاقات الاجتماعية عملية تنحية، وهو في الوقت نفسه عملية انتقاء، وتتم هذه العملية في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم بواسطة المدرسة، وذلك ما يسمى بالتربية." (بن نبي، 2013 أ: 67) وأن المقنن الأول للجهود التربوية في المجتمع هو الدين الذي اعتبره بن نبي المصدر الأول للمحتوى التربوي والأخلاقي في المجتمع وتحقيق السيطرة والضبط الاجتماعي الذي يقرر العلاقة بين الفرد ومحيطه الاجتماعي، ومدى تقبله له ومساهمة في تجسيد أهدافه.

هذا ويؤكد مالك بن نبي على أن التربية تجعل الفرد مدركاً تماماً لمفهوم الحياة المدنية، فالمدينة كما يراها علماء الاجتماع: " ليست تجمعاً من البشر في مكان جغرافي واحد، بل هي تفاعل حقيقي بين الإنسان والإنسان، بين الإنسان والمكان، ولا يتم هذا التفاعل في فراغ بل تحكمه أطر فكرية وتكنولوجية تعبر عن صيرورة تاريخية لذلك المجتمع و هذا المكان." (منظمة المدن العربية، 1981: 17)

ومن بين الأطر الفكرية التي تحكم العلاقة بين الإنسان والمكان في المدينة مفهوم الديمقراطية، التي عاجلها بن نبي على أنها تتمظهر من خلال: الشعور نحو الأنا المتمحور حول حقيقة الإنسان وماهيته، والشعور نحو الآخرين الذي يؤسس قواعد الديمقراطية ويعزز الاتصال بكافة أبعاده. وتتمظهر الديمقراطية كذلك كمجموعة الشروط الاجتماعية السياسية التي يتطلبها هذا الشعور (نحو الأنا ونحو الآخرين) حتى يولد ويتطور. إذ لا يمكن أن يتحقق مفهوم الديمقراطية على المستوى السياسي بعيدا عن مكونات الشخصية الفردية وعن عادات وتقاليده ذلك المجتمع، ذلك أن الديمقراطية هي التعبير الصريح عن فعالية شبكة العلاقات الاجتماعية، فهي أسلوب الحياة الذي تبرز من خلاله الخبرة المشتركة للفرد مع غيره. ويعتبر الكاتب أن قيم الديمقراطية والتزاماتها لا يمكنها أن تتحقق إلا في ذات الإنسان الحر، " فكل تطور ديمقراطي هو في جوهره عملية تصفية، تصفي الإنسان حتى يصبح الإنسان الجديد في صورة (المواطن) أو صورة (الرفيق) أي الإنسان الذي تخلص من رواسب العبودية ومن نزعات الاستعباد، التي تكون الصورة السلبية للشعور الديمقراطي." (بن نبي، 2009 ج: 140)

وبناء على كل ما سبق ذكره، نصل إلى القول بأنه لن يتسنى لمجتمع يسير بعيدا عن قم الحضارة أن يحلم بوجود المواطنة؛ فالحضارة عند مالك بن نبي: " هي ظاهرة اجتماعية شاملة ومستوعبة لكافة الطبقات والشرائح الاجتماعية، ينتعش فيها كل فرد ويحيا حياة سعيدة في عدل وأمن ورفاه" (أحمد، 1992: 75) ذلك الرفاه الاقتصادي الذي لا يلغي البعد الأخلاقي، بل يتأسس عليه، ويستمد نموه وتطوره منه. وإذا كانت المواطنة مفهوما لا يتأسس إلا من خلال إنشاء وتشديد الحضارة، فإن مالك بن نبي يرى أن الحضارة النموذج هي: " تلك الحضارة المتأصلة في مرجعيتها وأسسها، المكتسبة لمناعة ضد التغريب أو المسخ، المنبثقة عن محفز ديني يتوافق والطموحات الاجتماعية والمساعي ذات الأبعاد الإنسانية في سياقها الحضاري الناشئ والمتنظر. هي

مشهد آخر مختلف ذو خاصية إسلامية مطبوعة ومفتحة على حضارات أخرى في نطاق التبادل الإيجابي دون الانصهار والانسلاخ عن مرجعيتها وهويتها. " (ميهوب، 2014: 183)

خاتمة:

إن مفهوم المواطنة هو نتاج سيورة تاريخية كان مسرحها التاريخي والجغرافي المجتمع الغربي، وكان ذلك تبعا لمراحل متعددة، رافقتها ظروف محددة (المطالبة بالحقوق المدنية والحقوق السياسية والحقوق الاجتماعية، وهو ما ترافق مع الثورات الثلاث: الفكرية، الصناعية والسياسية) وهو ما لم تشهده مجتمعاتنا.

ولكي تتجسد المواطنة كسلوك لا بد من:

- ✓ توفير كل الشروط والظروف التي تمنع إحساس الفرد بالحرمان الاجتماعي.
- ✓ توفير الضمانات الاجتماعية لكل أفراد المجتمع.
- ✓ تهيئة المناخ لتكليف الفرد مع واقعه الاجتماعي.
- ✓ المشاركة الفعلية لجميع أفراد المجتمع في صياغة السياسات الاجتماعية وتنفيذها.
- ✓ السماح لجميع أفراد المجتمع بالاستفادة من خياراته.

قائمة المصادر:

- 1- بن نبي مالك (2006أ)، بين الرشاد والتهيه، ط6، دار الفكر، دمشق.
- 2- بن نبي مالك (2006ب)، وجهة العالم الإسلامي، ط6، دار الفكر، دمشق.
- 3- بن نبي، مالك (2009 أ) ، تأملات، ط9، دار الفكر، دمشق.
- 4- بن نبي مالك (2009ب)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ط9، دار الفكر، دمشق.
- 5- بن نبي مالك (2009 ج)، القضايا الكبرى، ط9، دار الفكر، دمشق.
- 6- بن نبي مالك (2012)، شروط النهضة، ط11، دار الوعي، الجزائر.
- 7- بن نبي مالك (2013 أ)، ميلاد مجتمع، دار الوعي، الجزائر.
- 8- بن نبي مالك (2013 ب)، مجالس دمشق، دار الوعي، الجزائر.
- 9- بن نبي مالك (2013ج)، مشكلة الثقافة، دار الوعي، الجزائر.

قائمة المراجع:

- 10- أحمد، زكي (1992)، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة: دراسة تحليلية نقدية، دار الصفوة، بيروت.
- 11- بندحمان جمال (د.ت)، المواطنة المسؤولة: دليل المفاهيم والمواضيع، المعهد العربي للتنمية والمواطنة، الأردن.
- 12- توميد، رفيق عبد الفتاح (2012)، إشكالية المواطنة في الفكر السياسي المعاصر، دكتوراه في العلوم السياسية، جامعة السليمانية، العراق.
- 13- عبد القادر بوعرفة (د.ت)، الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، دار الغرب، الجزائر.
- 14- عبد الحفيظ سعيد (2007)، المواطنة حقوق وواجبات، مركز ماعت للدراسات الحقوقية والدستورية، القاهرة.
- 15- غليون برهان (2006)، بيان من أجل المواطنة، ط5، المركز الثقافي العربي ، بيروت.
- 16- ولد يب سيدي محمد (2011)، الدولة وإشكالية المواطنة، كنوز المعرفة، عمان.

المعاجم:

- 1- ابن منظور، أبو الفضل بن مكرم (1993)، لسان العرب، ج 15، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 2- مان ميشيل (1984)، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل الهواري وسعد مصلوح، مكتبة الفلاح، الكويت.

المؤتمرات:

المودن، عبد الحي (2007)، رهان المواطنة، مغاربة العالم الإنتماءات والمشاركة، الرباط، المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، 2 يونيو 2007.

المذكرات:

ميهوب العايب ، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، دكتوراه في علم الاجتماع التربوي، جامعة بسكرة، 2013/2014، ص 183

مواقع الأنترنت: 13 12h : www.binnabi.net / 31/10/2016.